

من توصيات ومواثيق لمماليك للرهبان في القدس وضواحيها

بحث قدم في المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام «فلسطين»
من ٤ : ٩ جمادى الآخرة ١٤٠٠هـ - ١٩ : ٢٤ نيسان ١٩٨٠م

الأستاذ : روكسي بن زائد العزيزي

العالم كله يضطرب، لما تمارسه، وتعلنه اسرائيل بشأن القدس العربية، زاعمة ان القدس عاصمة ابدية لها. متجاهلة الحق العربى، والاسلامى، فى هذه المدينة المقدسة، التى انشأها العرب (اليبوسيون)(١) وقد ظل اسمها (يبوس) نسبة الى هؤلاء العرب، الذين قدموا من (نجد) ولم يقم بها يهودى واحد، بشهادة التوراة.(٢)

مع هذا، فسلطات الاحتلال، تتناسى مبادىء القانون الدولى، الذى ينظم علاقة الاحتلال بالاراضى المحتلة ومكانتها. وتدعى ان القدس يهودية!.

وبينما تناضل الأمة العربية، شعوبا، وقيادات، فى سبيل اعادة القدس، الى عربوتها الأصلية، والأصيلة، تروج الصهيونية العالمية، الدعايات المضللة، التى تصور العرب، والمسلمين، قوما متعصبين، حاقدين سفاحين، مدمرين للأنسانية، وتنكر على العرب والمسلمين سماحتهم الدينية. وتصورهم تلك الدعاية، قوما ليس فى استطاعتهم ان يحترموا للناس حقوقهم الأنسانية، ومعتقداتهم الدينية. تصورهم مخربين، هدامين متعطشين للدماء. وتدعى ان القدس مدينة يهودية، منذ أن وجدت، فى حين ان التوراة نفسها، تشهد بعكس مايدعون. وقد نص على ذلك سفر القضاة، فى الفصل التاسع عشر، كما ذكرنا.(٣)

لا أريد أن أذهب الى صحف التاريخ، اتصيد المراجع، والأسانيد التى تثبت عروبة القدس، فكتب التاريخ مملوءة بالحجج الدامغة، ويكفى ان نعرف ان (اليوسين) بناة (القدس) كانوا عربا، وان (القدس) كانت تعرف بأسمهم، (يبوس) وأنها كانت عنوان حضارة، تتجلى فى ابنيتها، الفخمة، واسباب معيشتها، ورفاهية سكانها، كما ذكر قبيل هذا.

وقبل انعقاد هذا المؤتمر، وقعت فى يدى، مجموعة من التوصيات والمواثيق، التى منحها سلاطين المماليك للرهبان فى القدس، وضواحيها، فوجدت منها، مايبين الصورة الحقيقية للتسامح الاسلامى، فى مايخص معتقدات الناس الدينية.

فرأيت أن البحث يحتاج الى موازنة بين موقفين متناقضين، يستطيع الباحث من

خلالهما ان يدرس الأعمال النفسية للأنسان العربى الذى فطر على التسامح: «كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر». يذكر لنا تاريخ الكنيسة، انه قبل مايقرب من ألفى سنة، - وكانت القدس خاضعة لحكم (رومية) ظهر السيد المسيح - وبشر بالديانة المسيحية وحارب المرابين، والذين يتكسبون بالدين اليهودى القديم.(٤)

فجاء هؤلاء، وطالبوا بيلاذس النبطى ان يحاكم المسيح، وطالبوا بصلبه، قائلين: «دمه علينا، وعلى اولادنا!» ويروى لنا التاريخ ، ان (بيلاطس النبطى) -الحاكم الرومانى- لم يتمكن من انقاذ المسيح من ايديهم، فأمر بأن يجلد، ويصلب، لكنه غسل يديه، قائلا : «انا برىء من دم هذا الصديق!».

لم أقصد ذكر هذه الحادثة، ان اكرر مايتعلمه تلامذة الصفوف الأبتدائية الأولى، لكنى اذكر هذه الواقعة، لأربطها بواقعة تاريخية حدثت بعدها بستمائة وست وثلاثين سنة، يوم وقف الخليفة العادل عمر الفاروق ليرد على صراخ اليهود الذى تردده الأجيال، : «دمه علينا وعلى أولادنا!». بعد أن طمأن سكان القدس بكتاب الأمان الذي منحهم اياه يوم وفد عليه وفدهم، وهو فى (الجابية)، ومن (الجابية) سار الى (القدس) ليتسلمها فاتحا.

نص كتاب الأمان الذى منحه الفاروق لأهل (ايلياء) القدس:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عبد الله (عمر) أمير المؤمنين، أهل (ايلياء) من الأمان، اعطاهم أمانا لانفسهم وأموالهم، ولكنائسهم، وصلبانهم، وسقيمها وبريئها، وسائر ملتها:

انه لاتسكن كنائسهم، ولا تهدم، ولا ينقص منها، ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بـ (ايلياء) معهم أحد من اليهود، وعلى أهل (ايلياء) أن يعطوا ماالجزية كما يعطى أهل (المدائن) وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم ، فأنه آمن على نفسه، وماله.

حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ماعلى أهل (ايلياء) من

الجزية، ومن أحب من أهل (ايلياء) ان يسير بنفسه، وماله مع الروم، ويخلى مبيعهم وصلبهم، فأنهم آمنون على أنفسهم، وعلى بيعهم، وصلبهم، حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كانت بها من أهل الأرض، قبل مقتل (فلان). فمن شاء منهم قعد، وعليه مثل ماعلى أهل (ايلياء) من الجزية، ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع الى أهله، فأنه لايؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم.

وعلى هذا الكتاب عهدا لله، وذمة رسوله، وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين، اذا اعطوا الذين عليهم من الجزية».

شهد على ذلك : (خالد بن الوليد) و (عمرو بن العاص) و (عبد الرحمن بن عوف) و (معاوية بن ابى سفيان) وكان ذلك سنة ١٥ هجرية - (وقيل بل كان سنة ١٦ - الكامل لابن الأثير، ج ٢ الصفحة ال ٤٩٩ دار صادر بيروت، موسوعة العتبات المقدسة، قسم القدس، ج ١).

فلما سلمت القدس للفاروق، ودخل كنيسة القيامة، وحان وقت الصلاة، قال للبطريرك (صفرونيوس): «اريد الصلاة !» فقال له: «صل موضوعك» فامتنع، وصلى على الدرجة التى على باب الكنيسة منفردا. فلما قضى صلاته، قال للبطريرك : «لو صليت داخل الكنيسة، اخذها المسلمون من بعدى، وقالوا: «هنا صلى (عمر)». وكتب لهم ان لايجمع على الدرجة للصلاة، وان لا يؤذن عليها. وهكذا، طبق (عمر) كتاب الأمان حرفيا.

وهنا تبرز حقيقة، تفرض على الباحث أن يوازن، بين موقف (عمر): «لو صليت داخل الكنيسة، اخذها المسلمون بعدى، وقالوا: هنا صلى عمر».

وبين دمه علينا، وعلى اولادنا !.

وماتفعله اسرائيل من اعتداء على حقوق الأنسان، ومن تحد لكل المواثيق، والأعراف الدولية.

اما وقد اوردت نص كتاب الأمان الذى اوردته كل كتب التاريخ، والوثائق، المعترف

بها، فلابد لى من ذكر وثيقة فى يدى وانا ابحث عن النسخة الأصل لكتاب الأمان الذى منحه الفاروق لأهل (ايلياء) – القدس – وهذا نصها:

تسليم المدينة المقدسة (أوشليم) الى الخليفة (عمر بن الخطاب): من قبل (صفرونيوس) سنة ٦٣٥ مسيحية الموافقة ١٥ هجرية:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى اعزنا بالاسلام، وأكرمنا بالأيمان، ورحمنا بنبيه (محمد) ﷺ وهدانا من الضلالة، وجمعنا بعد الشتات، والف قلوبنا، ونصرنا على الأعداء، ومكن لنا من البلاد، وجعلنا أخوانا متحابين. وأحمدوا الله، عباد الله، على هذه النعمة.

هذا كتاب عمر بن الخطاب، لعهد، وميثاق، أعطى الى البطرك المبجل المكرم وهو صوفرينوس بطرك الملة الملكية، فى (طور الزيتون) بمقام (القدس الشريف) فى الاشتمال على الرعايا القسوس، والرهبان، والراهبات، حيث كانوا، وأين وجدوا. وان يكون عليهم الأمان، وان الذمى اذا حفظ احكام الذمة، وجب له الأمان، والصون منا، نحن المؤمنين، والى من يتولى بعدنا، ويقطع عنهم اسباب جوانحهم، كحسب ماقد جرى منهم من الطاعة، والخضوع، وليكن الأمان عليهم وعلى كنائسهم، ودياراتهم، التى بايديهم، داخلا، وخارجا وهى(القمامة) و (بيت لحم) مولد عيسى – عليه السلام – كنيسة الكبراء، والمغارة ذى الثلاثة ابواب: قبلى، وشمالى، وغربى، وبقية اجناس النصارى، الموجودين هناك، وهم: (الكرج) و (الحبش) والذين يأتون للزيارة، من الأفرنج و (القبط) و (السريان) و (الأرمن) و (النساطرة) و (اليعاقبة) و (الموارنة) تابعين للبطرك المذكور، ويكون متقدما عليهم، لانهم أعطوا من حضرة النبى الكريم والحبيب المرسل من الله، وشرفوا بختم يده الكريم، وأمر بالنظر اليهم والأمان عليهم. كذلك نحن المؤمنين نحسن اليهم، أكراما لمن احسن اليهم. ويكونوا معافا من الجزية، والغفر، والمواجب. ومسلمين من كافة البلايا، فى البر، والبحور، وفى دخولهم لـ (القمامة)، وبقية زياراتهم، لايؤخذ منهم شىء واما الذين يقبلون الى الزيارة، يؤدى النصرانى الى البطرك درهم وثلث من الفضة.

وكل مؤمن ومؤمنة، يحفظ ما أمرنا به، سلطانا، ام حاكم، ام والى. يجرى حكمه فى

الأرض، غنى أم فقير. من المسلمين المؤمنين والمؤمنات، وقد أعطى لهم مرسومنا هذا بحضور جم الصحابة الكرام: (عبد الله) و (عثمان بن عفان) و (سعد بن عوف)، وبقية الأخوة الصحابة الكرام، فليعتمد على ماشرحنا فى كتابنا هذا، ويعمل به، وابقاه فى يدهم، وصلى الله تعالى على سيدنا (محمد) واله واصحابه، والحمد لله رب العالمين. حسبنا الله ونعم الوكيل فى العشرين من شهر ربيع الأول سنة خامس عشر للهجرة النبوية، وكل من قرى مرسومنا هذا من المؤمني وخالفه من الآن والى يوم الدين، فليكن لعهد الله ناكثا، ولرسوله الحبيب باغضا.

ملاحظات : وهنا، لابد لنا من وقفة عند كتاب الأمان هذا. الذى اعترف به المماليك، واتخذوه اساسا لتوصياتهم، ومواثيقهم التى منحوها للرهبان، فى القدس وضواحيها:

١- لغة الكتاب، لا تشبه لغة العصر الراشدى، ولا بحال من الأحوال!.

٢- حروف الكتابة معجمة، فى حين ان الأعجام، لم يعرف قبل العصر الأموى.

٣- كتاب الأمان الأصل، الذى مرت بنا صورته، لم يذكر اية طائفة، من طوائف النصارى. لأن الأمان، منح لأهل (ايلياء) - القدس - بلا تفريق بين الطوائف، ولم يستثن، سوى اليهود، لأنه لم يسمح لهم بأن يقيموا فى القدس.

٤- الكتاب الذى فى يدنا صورة عنه، يسمى الطوائف، ويجعلها تابعة للبطريك (صفرونيوس)، ولعل بعض تلك الطوائف، لم يكن قد نشأ فى عهد (صفرونيوس).

٥- بعض الألفاظ التى وردت فى هذا الكتاب لم تعرفها اللغة العربية الا فى زمن متأخر جدا، مثل:

أ) مرسوم، بمعنى عهد، أو ميثاق، أو أمر سلطانى.

ب) فليعتمد - اى فليتخذ اساسا لما أمر به السلطان - فهذا الاصطلاح، لم تعرفه اللغة قبل الدور التركى، ودور المماليك.

ج) تسمية (ايلياء) بـ (القدس الشريف) لم تكن معروفة فى العصر الراشدى، اسمها (بيوس) – نسبة الى بناتها البيوسبين – العرب الذين بنوها. أما تسميتها بـ (القدس الشريف) فقد وردت متأخرة، اى فى عهد الترك، العثمانيين.

د) قدم فى هذا الكتاب، التاريخ المسيحى، وآخر التاريخ الهجري، وهو أمر لم يكن مألوفا. والتاريخ الميلادى، لم يرد فى كتاب الأمان – اصلا – ولا ورد له ذكر فى أية دولة مسلمة.

٦– وأكثر من ذلك كله، ان كتاب الأمان، صدر فى الجابية، وسلم لوفد أهل القدس، وهو أمان خاص بـ (القدس) وبأهلها، ويتميز من كل عهد أو أمان منح لغير (القدس) لكن هذا الأمان حفظ فى البطريركية التى كان يرأسها البطريرك (صفرونيوس).

الأخطاء اللغويـــة:

أما الأخطاء اللغوية، التى فى هذا الأمان، فكثيرة، لايمكن ان تقع من عربى، اصيل. وسنورد منها جانبا، للبرهنة على مانقول، ليس غير:

أ) فى الأشتمال، على الرعايا والقسوس، لعله اراد أن يقول: «ان هذا الأمان يشمل القسيسين والرعايا».

ب) ويقطع عنه أسباب جوانحهم – اراد بالجوانح كل جناية ترتكب.
ج) وكافة زياراتهم – اراد أن يقول كل زيارتهم.
د) والمغارة ذى الثلاثة ابواب: المغارة ذات الأبواب الثلاثة.
هـ) وبقية أجناس النصارى تابعين – تابعون.
و) أعطوا من حضرة النبى، وشرفوا بختم يده الكريم، وأمر بالنظر اليهم، والأمان عليهم. ولعل الأخطاء اللغوية تهون، اذا لاحظنا الخلط التاريخى بين النبى ﷺ وبين عمر ابن الخطاب.
ز) يكونوا معافا – يعفون.
ح) كافة البلاد – البلاد كلها.

ط) يودى النصرانى الى البطرك درهم وثلث. كذا.
ى) وكل مومن وممومنة يحفظ ما أمرنا به سلطانا أم حاكم أم والى. كذا.
ك) يجرى حكمه فى الأرض غنى أم فقير ؟.
ل) اثبت الهمزة فى كلمة (ابن) مع وقوعها بين علمية، كقوله: (خالد ابن الوليد) وبقية الأسماء.
م) ووقع خلاف فى اسماء الشهود بين كتاب الأمان الأصل، والصورة التى فى يدنا. التى اعتمدنا فيها على أوثق المراجع العربية فقد ذكرت المراجع المعترف بها هؤلاء الشعود.

*** خالد بن الوليد * عمرو بن العاص * عبد الرحمن بن عوف * ومعاوية بن ابى سفيان.**

لهذه الأسباب، نرانا مضطرين لاعتبار هذه الوثيقة زائفة. لكن زيف هذه الوثيقة، لايطعن فى الحقيقة التاريخية الثابتة وهى ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قد منح اهل ايليا كتاب أمان اثبتنا نصه الحرفى، كما ورد فى مجموعة الوثائق السياسية. فى العهد النبوى، والخلافة الراشدة، التى جمعها الدكتور «محمد حميد الله الحيدر آبادى» المطبوعة فى مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر فى القاهرة سنة ١٩٤١م، وموسوعة العتبات المقدسة قسم القدس الجزء الأول لصاحبها الأستاذ (جعفر الخليلى) والكامل لابن الأثير ج ٢ الصفحة ٤٩٩ دار صادر، وتاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبرى، ج ٣ الصفحة الـ ١٠٥، مطبعة الاستقامة بالقاهرة.

وعلى الرغم من كون هذه الوثيقة التى نقدناها زائفة، لاتمثل كتاب الأمان العمرى، فان المماليك قد عاملوا الرهبان معاملة انسانية، تكذب كل الافتراءات التى كيلت للعرب، وللمسلمين بلا حساب، علما بأن هؤلاء الرهبان، لم يكونوا عربا، وكانوا من بقايا الفرنجة، الذين صبغت سيوفهم بدماء المسلمين، وجفت سيوف المسلمين بدمائهم. لكن المماليك تقيدوا بالآية الكريمة : «وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولاتنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ماتفعلون» سورة الأحزاب الآية الـ ٩١.

من اجل هذا، ابدأ باثبات مرسوم من (برقوق) الذى يعتبر مؤسسا لدولة المماليك (البرجية)(٥) الذى توفى سنة ١٣٩٨م وقد كان برقوق السلطان الأوحد بين المماليك،

الذى كان ابوه مسلما(٦) فتأثر بسماحة الاسلام فحافظ على العهود، والمواثيق، وعمل بسماحة الاسلام، باحترام معتقدات مخالفيه فى الدين، وانتصر على طبيعته الحربية، التى اباحت له ان يقتل رسل (تيمورلنك)، الذين جاءوا بمهمة رسمية.(٧)

صحيح ان هذه المواثيق التى صدرت عن هؤلاء السلاطين، كانت مفسدة لطبيعة اللغة العربية، لكن الحق يجب ان يقال، ان هؤلاء المحاربين الذين لم يعرفوا الا ساحات القتال، قد برهنوا على سماحة اسلامية تستحق التقدير.

ميثـاق برقـوق :

بسم الله الرحمن الرحيم

مثالنا هذا، الى كل واقف عليه من المجالس السامية

برقـــوق

ومجالس الأمراء والاكابر الغزاة الأنصار.

يعتمـــد

امجاد الاسلام، بها زين الانام، اشراف الأمراء اعضاء الملوك والسلاطين الولاة والنواب والشارين والمتصرفين بالطرقات المصرية، والبلاد الشامية ادام الله سعدهم وانجح قصدهم يتضمن اعلامهم ان الرهبان بكنيسة (دير حجون) بـ (القدس الشريف) انهوا أنهم منقطعين فى كنيستهم المذكورة يأكلوا الصدقة، وليس لهم رزقا به ولا معلوم وثم من البريدية من يتعرض اليهم بالاذية والضرر ويقطع مصانعتهم وايضا يقطع مصانعة فتصلهم فلما اضر ذلك بحالهم شكوا حالهم الى النواب بالمملكة فكتب لهم مراسيم مطلقة يمنع من يتعرض اليه بما لاجرت به عادة من قديم الزمان وهم مستمرين على ذلك الى الآن.

ومرسومنا للمجالس السامية ومجالس الأمراء ان يتقدموا بحملهم على حكم المراسيم الشريفة التى بأيديهم من قديم الزمان والى آخر وقت المستمرة الحكم الى آخر وقت ومنع

من يتعرض اليه من البريدية ولقنصلهم من قطع المصانعة ولا يحدث عليهم حادث لم تجر به عادة والوصية بهم يعملون ذلك ويعتمدونه ويعمل به والله الموفق ان شاء الله عز وجل.

فى تاسع عشر شوال المبارك
سنة تسعين وسبــع مائة.

بالاشارة الكريمة العالية الأميرية الكافلية السيفية، كافل الممالك الشريفة الاسلامية المحروسة اعلاه الله تعالى الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وحسبنا الله وكفى. (٨)

وهذا مرسوم آخر من (برقوق)(٩) عن مجموعة التوصيات والمواثيق من الصفحة الـ ٣٤ - ٤٠.

بسم الله الرحمن الرحيم

صدرت هذه المكاتبة الى المجلس العالــى

برقـــوق

المالـــك

الاميرى الكبيرى الذخرى الاوحدى المؤيدى

النصرى الفوثى السندى مجد الاسلام والمسلمين شرف الامراء المقدمين نصر الغزاة والمجاهدين...... عضو الملوك والسلاطين، ادام الله تعالى سعادته وبلغه من الخير ابلغه، موضحة لعلمه ان قصة رفعت باسم طائفة الفرنج بـ (القدس الشريف) انهوا فيها ان الصدقات الشريفة، شملتهم بمرسوم شريف بعمارة ماتهدم وبلى من الأخشاب والرصاص بجهد سيدنا (عيسى) عليه السلام (بيت لحم) واذا حضر بسبب العمارة خشب أو صنف من أصناف العمارة أو ضاع فلا يتعرض احدا اليه وامتثل المرسوم الشريف وأعمل بحسبه. وتم من يقصد الآن قطع مصانعتهم ومرسومنا للمجلس العالى ان يتقدم بحمله فى

ذلك على حكم المرسوم الشريف الذى بأيديهم المستمر الحكم والعمل بحسبه وضع من يتعرض اليهم بغير سبب.

وكف اسباب الأذى والضرر عنهم والوصية بهم ورعايتهم ويحيط علما بذلك والله الموفق بمنه وكرمه ان شاء الله تعالى.

كتب فى العشرين من شوال المبارك سنة سبع وتسعين وسبع مائة حسب المرسوم الشريف.

الحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد وصحبه وسلامه حسبنا الله تعالى.

وهذا مرسوم ثالث من (برقــوق) (١٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

صدرت هذه المكاتبة الى المجلس العالى

(برقــــوق)

المالـــك

الأميرى الأجلى الكبيرى العنصرى الاوحدى الذخرى النصرى المجاهدى المؤيدى العلامى مجد الاسلام بهاء الأنام شرف الأمراء زين المجاهدين عمدة الملوك والسلاطين ادام الله تعالى تأييده وتشديده توضح لعلمه المبارك ان جماعة رهبان الفرنج انهوا انهم مقيمين بداخل القمامة لأجل خدمة كنائسهم ولهم مساكن معروفة بهم من قديم الزمان ولم تكن جرت عادة احدا ان يعارضهم فى مساكنهم وقد قصدوا جنس الروم ان يسكنوا بمساكنهم التى بايديهم وبهم معروفت.

ورفعوا ايدى المذكورين عن املاكهم وبايديهم محاضر شرعية تشهد لهم بالمساكن المذكورة انها خادمة بايديهم من قديم الزمان دون غيرهم ومرسومنا للمجلس العالى ان يتقدم.

امره المبارك بحملهم على ما بأيديهم من المحضر الشرعى الشاهد لهم بالمساكن المذكورة ومنع جنس الروم من التعرض لهم أو لمساكنهم مع الوصية بهم فى ذلك ومراعاتهم والأحسان اليهم ويستقر المثال الشريف بأيديهم بعد العمل به فيحيط علمه الكريم بذلك ان شاء الله تعالى.

كتب فى سابع عشر الحجة الحرام
سنة ثمان تسعين وسبعمائة
حسب المرسوم الشريف

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد واله صحبه وسلم.

والآن ننتقل الى (جقمق) الملك الظاهر، سيفْ الدين(١١).

لكى نعطى صورة متكاملة، عن معاملة هؤلاء المماليك، فالتسامح الذى نعم به الرهبان وأهل الذمة، فى زمن برقوق، جاء بعده تشدد من (جقمق) اذ لم يعد يسمح للرهبان، اذا عطب دير من دياراتهم، ان يصلحوه الا اذا صدر بذلك مرسوم، ولم يكن يصدر هذا المرسوم، الا بعد أن يفتى بذلك قاضى القضاة. والبرهان على ذلك هذا المرسوم الذى نثبت نصه، كما ورد فى مجموعة المواثيق.

بسم الله الرحمن الرحيم

صدرت هذه المكاتبة الى المجلس العالى

(جقمـــق)

المالـــك

القاضوى الكبير العالمى المؤيدى المجاهدين الفاضل الذخرى العزى

ليمتثل الأمر الشريف

الفاضل الكاملى البارعى المفيدى الرفيدى الاصيلى العريقى

ليمتثل الأمر الشزيف

الريسى الاوحدى الامينى مجد الاسلام والمسلمين شرف الروسا فى إلعالمين فخر الامنا

جمال البلغا اوحد الأصلا زين الاماثل المعتبرين صفوة الملوك والسلاطين ادام الله تعالى نعمته وجدد مسرته وموضحة لعلمه ان جماعة الغارديان(١٢) والرهبان بدير صهيون بـ (القدس الشريف) رفعوا قصة لمواقفنا الشريفة قرأت على مسامعنا الشريفة انهوا فيها ان بدير (بيت لحم) اماكن قد تخربت وتهدمت من كثرة الأمطار والأهوية وأنهم يخشون من طارق يتوصل منها.

الى داخل اماكنهم ويحصل لهم بذلك الضرر وانهم اوصلوا هذه القضية بالمجلس العالى وبالمجلس العالى الاميرى الكبيرى السيفى النايب بـ (القدس الشريف) وكاشف (الرملة) والقضاة بـ (القدس الشريف) وانهم امروا المهندسين بكشف ذلك بحضور العدول وانهم مروا بعمارة ذلك على ماكان عليه أولا من غير زيادة وتلبيس اسطحته بالجبس وترميمه وقطع قرطسه وانهم كتبوا بذلك محضرا ومرسومنا للمجلس العالى ان يتقدم بالركوب بنفسه ويتوجه الى الدير المذكور ويكشف الأماكن المذكوره ويعمل فيها بما تقتضيه حكم الشرع الشريف ويراه ذمة المجلس العالى عند الله عز وجل فاننا نتحقق دينه وخيره وجودته والقصد فى ذلك العمل بما تقتضيه الشريعة المطهرة وكتبنا الى المجلس العالى النايب بـ(القدس الشريف) ومامع ذلك بمعنى ذلك وذكروا فى قصتهم ان من جملة حقوق الدير المذكور مكانا ملاصقا بجداره ينتفعون به فى زراعة الخضروات وأنه لما قل ترداد الرهبان الى المكان المذكور للدير قديما وهو مع حقوقه والواضع اليد عليه الآن بغير حق ولا طريق شرعى فيعاد اليهم على الوجه الشرعى وذكروا فى قصتهم انه اذا ورد راهب مستجد من بلاد الفرنج انه يزين الموجب السلطانى مرة واحدة وانه اذا سافر لاحضار الصدقة ثم عاد لايعطى شيئا وكذلك ريس الدير لم يكن له عادة بوزن شيء قط وانه فى هذا الوقت تم من احدث عليهم حادثا ويلزمهم باعطا مالم تحجر لهم به عادة فيتقدم المجلس العالى ويكشف عن أمرهم قديما ويجروا فى ذلك على جارى العادة فى الأيام الناصرية والمويدية وذكروا فى قصتهم أيضا ان لهم ترجمانا نصرانيا يسمى يوسف يتعاطى اسباب مصالحهم ويقضى حوايجهم ويخدمهم على ماجرت به العادة وقرروه الحكام من قديم الزمان وانه لم يكن له جرمة ولا جنحة وتم من يقصد استبداله بغيره ويقصد بذلك قطع مصانعتهم ويحصل لهم بذلك الضرر فيتقدم المجلس العالى بالكشف عن يوسف المذكور وان لم يكن صدر منه ذنب ولا جرمة فيستمر فى ترجمتهم على عادته وقد كتبنا الى المجلس العالى السيفى النايب بـ(القدس الشريف) وكاشف الرمله واعلمناه بذلك كله.

فليحيط علم المجلس العالى بذلك والله تعالى يويده بمنه وكرمه ان شاء الله.

كتب فى حادى عشر من القعدة الحرام من سنة خمسين وثمان مئة حسب المرسوم الشريف الحمد لله رب العالمين وصلواته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه حسبنا الله ونعم الوكيل.

لاحظنا من مرسوم (جقمق) انه حاول - مع كل التشدد والتضييق - ان يتقيد باحكام الشريعة، وبنصوص المواثيق السابقة.

وهذا مرسوم آخر يدل على السماحة وحسن المعاملة.

ونلاحظ فى هذا المرسوم بادرة جديدة، وهى ان المرسوم خلاله البسملة، وكأنما هو يشير الى ان هذا المرسوم تابع لمرسوم آخر صدر بالبسملة كما هى العادة.

الحمد للـــه
الملكى الظاهــرى ـُـنـظ
يعتمـــد

المرسوم بالامر الكريم المولوى السيدى يتقدم كل واقف عليه من المجالس العالية والأمراء الاجلاء الاكابر الولاة ونوابهم والشادين والمنصرفين بالاعمال القبلية المحروسة ادام الله سعدهم.

بتأمـــل
ما انهاه القرديان ريس طائفة الفرنج بـ (صهيون) من ان الصدقات الشريفة شرفها الله تعالى وعظمها شملته بتواقيع شريفة كريمة تمكنه من عمارة (بيت لحم) مهد (عيسى) صلوات الله عليه واحضار الأخشاب من البحر ومنح ضمان.

الموانى من التعرض الى الأخشاب الوارده بسبب ذلك وقد رسمنا بتمكينه من عزل الدروب المعروفه بوادى (حسكا) لاجل احضار الخشب على العجل بسبب عمارة (مهد عيسى) صلوات الله وسلامه عليه حسبما برزت به المراسيم الشريفة.

والكريمة وامتثال امرها وعدم الخروج عنها ومنع من يتعرض الى المذكور فى ذلك

ومساعدته والوصية به وكف اسباب الأذى والضرر عنه فليعتمد المرسوم فيه كل واقف عليه من غاير عدول عنه ولا خروج عن معناه بعد الخط الكريم اعلاه ان شاء الله تعالى.

كتب فى رابع عشرين ربيع الآخر سنة اربعة عشر وثمان ماية حسبنا الله وكفى.

وهذا مرسوم من (خشقدم) الذى كان متمسكا بما يفرضه الشرع، وبالعادات والتقاليد، فبسط السلام فى ربوع (مصر) ونجت تلك الديار فى زمانه من شر الاوبئة، وتمتعت برخاء وبرفاهية.

بسم الله الرحمن الرحيم

رسم بالأمر الشريف العالى المولوى

(خشقدم)

السلطانى الملكى الظاهرى السيفى
اعلاه الله تعالى وشرفه وانفذه فى الآفاق وصرفه

يعتمد

ان يسطر هذا المرسوم الشريف الى كل واقف عليه من المقر والجناب الكريمين العاليين الاميرين الكبيرين الكفيلى والكافلى السيفيين كافلى السلطنة الشريفة بالشام وحلب المحروستين أعز الله تعالى انصارهما والجنابات والمجالس العالية السامية الكافلية السيفية نواب السلطنة الشريفة بـ (طرابلس) و (حماة) و (صفد) و (غزة) و (القدس الشريف) وناظر الحرمين الشريفين بها وكاشف (الرملة) و (نابلس) والأستاذ دار المتولى قبض مالى (الجرجان) والحكام وولاة أمور الاسلام بالممالك الاسلامية ضاعف الله تعالى وادام نعمتهم بيدى ويوضح لعلمهم الكريم المبارك ان المحتشم الموقر الأرخس القديس فخر طايفته وأهل ملته الرايس بدير (صهيون) و (عين كارم) و (بيت لحم) وكبير طايفة الفرنج المقيمين والواردين الى (القدس الشريف) رفعوا قصة لمواقفنا الشريفة انهوا فيها احوالهم وسألوا صدقاتنا الشريفة شمولهم بنظرنا الشريف وبعدلنا الشامل وان يجدد لهم مرسوما

شريفا مطلقا على حكم ما بأيديهم من المراسيم الشريفة من الملوك السالفة، وهم (الظاهر بيبرس) و (الحضور قلاوون) و (الناصر محمد) و (الناصر حسن) واخوته و (الاشرف شعبان) و (الظاهر برقوق) و (الناصر فرج) و (المؤيد شيخ) وولده (المظفر) و (الظاهر ططر) وولده (الصالح) و (الاشرف برسباى) و (الظاهر جقمق) و (الأشرف اينال) ومرسومنا الشريف ايضا يتضمن ما نذكر فيه، وهو انه:

اذا حضرت بريدية او خاسكية أو غيرهم الى (القدس الشريف) لايكلفوا ولا يلزموا بكلفة ولا تسفير الا ان كان لهم اسما وان كان على احد من طابقة الفرنج أو من اجناس النصارى مطالبة، فلا يلزموا بها.

ولاتلزم طايفة الرهبان بتسفير ولا كلفة الا ان كان لاحد اسم وان هلك الرايس بدير (صهيون) أو احد من الرهبان أو من الجرجان يكون موجوده للرهبان المذكورين ويمكنوا من دفن من هلك ولا يعارضوا فى مأكلهم ومشربهم ويفسح لهم فى شراء العنب لمشروبهم اذا لم يحصل به نفع للمسلمين ويمكنوا من مشروبهم ومعايشهم ونقلها من دير الى دير ومن كنيسة الى كنيسة على جارى عادتهم القديمة ويمكنوا من التوجه الى بلادهم وضروراتهم والعود الى محلهم بترجمان، وبغير ترجمان، ولايلزموا بقرض ولا معاملة وتمكين الرهبان من الدخول الى قمامة عندما تفتح بغير كلفة وتمكين الريس بدير (صهيون) من اقامة اثنين وثلاثين أو أربعين بقمامة واخراجهم اذا اراد واستبدالهم بغيرهم على جارى العادة ويمكنوا من تلييس مساكنهم وتلييس اسطحتهم لدفع الضرر من المطر على الوجه الشرعى ولايطلب منهم غرامة ولا قطع مصانعة ولا يلزموا بما على احد يموت من الفرنج أو البنادقة (١٥) والرهبان وغيرهم و (عين كارم) الا برضاهم ويمكنوا من الدار المجاورة لديرهم وترميم اماكنهم التى يحتاجون اليها للسكنى ولا يثاقلهم احد من الحكام (بالقدس الشريف) لا من الناظر ولا من النايب ولا الوالى ولا غيرهم ولا يقطع لهم احد مصانعة ولا تمنع الصدقة المحضرة اليهم من بلادهم ولا يعارضهم فيها احد من الخفر أو من الشادين بالمين، والسواحل والطرقات وغير ذلك ولا يعارضوا فى جميع مزراتهم بالأماكن التى لهم بها عادة ودخولهم فيها وفعل شرايطهم واعيادهم التى اقتضاها دينهم وخلاص حقوقهم ممن يتعين فى جته واذا حصلت عليه شكوى من (القدس الشريف) برسول من (القدس الشريف) يعطى درهم واحد فضة أو درهمين ولا يطالبوا ولايكلفوا بشىء جملة كافية.

على جارى عادتهم القديمة واذا اعتدى احد من طوايف الفرنج على احد من المسلمين

فى البحر أو البر لايلزم الرهبان بذلك لانهم تركوا الدنيا واشتغلوا بعبادة الله بالديورة المذكورة واذا حصل لاحد من الرهبان من احد من الحكام بـ (القدس الشريف) وغيره ضرر وقصر الحضور الى الأبواب الشريفة يمكن من الحضور ولا يمنع واذا حضر احد من البريدية لايتعرض اليهم فى بيوتهم ولا فى مساكنهم ولا يقصدهم بضرر جملة كافية وان لايطلب الرهبان المقيمون بدير (صهيون) و (بيت لحم) و (عين كارم) و (القدس الشريف) بسبب القسايم التى كتبت عليهم ولا يلزم بها الا القناصلة لاغير وانه من قصد من (الجرجان) والفرنج التردد الى دير (صهيون) و (بيت لحم) يمكن من ذلك على العادة ولا يمنع اجهار الندا لهم بالحماية من الضرر والتشويش والأمان والأطمئنان وكف الاذا عنهم وعن غلمانهم واتباعهم واجرايهم واجراتجارهم على جارى العوايد عملا فى ذلك بالعدل الشريف وان يتقدم الكاشف بـ (الرملة) بكتابة قسايم شريفة على الخفرا بـ (الرملة) و (يافا) يعدم معارضة الرهبان المذكورين جملة كافية على جارى عادتهم وان لايفرض احد الى الرهبان الواصلين لمينا (يافا) المعروفين برهبان الحبل(١٦) ريسهم بدير (صهيون) و (عين كارم) و (بيت لحم) وكذلك التراجمة بـ (الرملة) و (القدس الشريف) ولا يتعرضوا الى الفرنج فى ترجمة الا ان يكون بيد من يقصد التعرض اليهم مرسوم شريف أو منشور بالترجمة ومن لم يكن بيده مرسوم شريف ولا منشور شريف لايتعرض اليهم جملة كافية وان يمكن غلمانهم واتباعهم من السفر حيث شاءوا من غير معارض لهم وسال الريس بدير (صهيون) والرهبان ان لايكرهوا على ضمان احد من الفرنج ولا غيرهم وان لا يلزموا بكتب قاسيم ولا حلف حيث يشق ذلك عليهم فى دينهم وانه اذا حدث طلب بـ (القدس الشريف) على النصارى واليهود بسبب تكسير أو غير ذلك ولا يلزم الريس بالدير المذكور ورهبانه بشىء من ذلك وان يعفوا من ساير المغارم والمظالم وان يمكن الريس بدير (صهيون) من ارسال رهبانه حيث شاؤا من ساير الممالك لاستعطا مايقوم باودهم وابطال ماكتب على رهبانه فى غيبته بسبب ذلك واذا سافر رهبانهم بحوايجهم وضروراتهم وغابوا سنتين وأكثر فى أشغال ديرهم تكتب اسماءهم عند المباشرين بحيث انهم اذا عادوا لايلزموا بكلفة ولا موجب واذا استبدل الريس رهبانا من ديره برهبان (بيروت) لايوخذ منهم موجب على عادتهم وانه اذا خرج راهب بغير اذن ريسه ووقع منه شيا ناقصا فلا يجزم الريس ولا رهبانه بذلك واذا حضر طايفة (الجرجان) والتجار والرهبان وغلمان التجار لزيارة قمامة واقاموا بما عليه من المواجب يمكنون من الدخول ثلاث مراتِ من غير تعويق على عادتهم ومنع من يقصر قطع مصانعتهم بسبب ذلك واذا حضر الى (القدس) الشريف خاصكى أو بريدى أو غيرهم بسبب تكسير خمر النصارى واليهود وحصل مفرم فلا يلزم الرهبان بتكسير ولا كلفة واذا توجه الرهبان الى بحر الشريعة وغير ذلك من المزارات لا يكلفوا الخفر أو قطع

مصانعة وانه اذا حضر (جرجان) أو فرنج من البر أو البحر وحصل لهم قطع طريق عليهم واخذ موجودهم فلا يلزم الرهبان ولا يلزموا غصبا بموجب المذكورين لا فى ايام مستحق المقر الكريم الكفيلى كافل المملكة الشامية ولا فى بسط السنة واذا شكاهم احد بغير حق وغرموا شيأ يرجع على من شكاهم بذلك واذا فتحت قمامة (١٧) للزيارة وقصد حوايج كاستهم ورهبانهم الدخول لها يمكنوا من ذلك بغير كلفة الدرهم الفرد على جارى عادتهم.

لايمكن احد من طوايف النصارى من الدخول الى أماكنهم بغير رضاهم ومنع من يقصد ضررهم فهذا مضمون ما بايديهم من المراسيم الشريفة وما سالوا فيه صدقاتنا الشريفة وقد رسمنا لهم الآن باستمرارهم عتلى ذلك حملا على حكم ما بايديهم من المراسيم الشريفة المتقدمة من الملوك السالفة شفى الله تعالى عهدهم حين اقتضاه الشرع الشريف ومرسومنا لكل واقف عليه ومستمعه وناظر اليه ان يتقدموا بمنع من يحدث على المذكورين حادث أو يجدد عليهم مظلمة وحملهم على حكم ما بأيديهم من المراسيم الشريفة المشار اليها حيث اقتضته الشريعة المطهرة وكف اسباب الاذا والضرر عنهم ومعاملتهم بالمعدلة الشريفة ومنع من يتعرض لهم بسوء ولا يكلفوا لما لا طاقة لهم به ولا عادة عليهم ومنع الوالى والبلاصية (١٨)، والمشاه وغيرهم من دخول ديرهم وقطع مصانعتهم والتشويش عليهم واذا دخل ريس جديد وخرج من قبله فلا يكلف احد منهما الى مفرم ولا يلزم بكلفة ومن اعتمد خلاف مارسمنا به من ذلك وما تضمنته مراسيم الملوك السالفة تبرز المراسيم الشريفة باحضاره الى الابواب الشريفة عملا بالعدل الشريف والمريخ من ديوان الجيوش المنصورة المؤرخ بحادى عشرين شهر ربيع الأول سنة ست وستين وثمناية والعمل به والوصية بهم ومنع من يتعرض اليهم.

بغير طريق مبين قولا واحدا وامرا جازما والمراسيم الشريفة توكد عليهم فى ذلك.

غاية التاكيد والاعتماد على الخط الشريف اعلاه حجة فيه بمقتضاه ان شاء الله تعالى.

كتب فى ثامن عشرين شهر صفر المبارك
سنة تسع وستين وثمنمئة
حسب المرسوم الشريف.

الحمد لله وحده وصلواته على محمد واله وصحبه وسلامه

إن هذا المرسوم الذى أحاط بكل شيء، حجة دامغة على أن كل مايقال على العرب، والمسلمين، من دعايات باطلة، إنما هو زور وهذا لايمنع أن يكون هنالك أناس لايلتزمون بأوامر الشرع، ولا بنواهي السلطان، لكن هذا ليس حجة على العرب، والمسلمين، بل هو حجة لهم على الناس!..

بعد أن وضح لكل ذى عينين، مما تقدم أن العرب والمسلمين، هم أحق الناس بالاشراف على القدس، والأماكن التى تقدسها الاديان الكتابية، أرى من واجبى أن أقول كلمة موجزة، على نشوء دولة المماليك، الذى يكاد يكون من معجزات التاريخ، لأن نشوء هذه الدولة بفرعيها:

أ) البحرية – المماليك الترك.

ب) والبرجية – والمماليك الجركس.

قد خالف كل منطق التاريخ، الذى يفرض على مؤسسى الدول التى يكتب لها الثبات، أن يستندوا الى عصبة قوية، وتقاليد زعامة، أو تجديد عقيدة أو على حزب قوى، ومعجزة المماليك، قائمة على انهم لم يكونوا على شيء من ذلك. فانا، برأيى المتواضع، اعد نشوء دولتهم احدى معجزات التاريخ، التى لايعرف لها نظير. لان المماليك فئة من الرقيق، من جنسيات مختلفة، وقوميات متعددة متباينة، سيطروا على بلاد عريقة فى مجدها، وتاريخها من غير أن يكون لهم فيها جذور، لا من عشيرة، ولا من قبيلة، ولا من عصبة. وليست لغتهم الأصلية هى لغة البلاد، ولم يكن الدين الاسلامى، هو دين آبائهم واجدادهم. اذا لم يكن بينهم جميعا من ابوه مسلم سوى (برقوق) وحده.

فبلوغ دولتهم اوج العظمة يكاد يكون اعجوبة، وما اظن ذلك كان ممكنا، لولا التسامح العربى، والمساواة التى فرض الاسلام على تابعيه: «ليس لعربى على اعجمى فضل الا بالتقوى» كلكم لآدم، وآدم من تراب. «ان اكرمكم عند الله اتقاكم». وقد استطاع هؤلاء المماليك ان يجعلوا من انفسهم طبقة محاربة عسكرية تمكنت من اقصاء الفرنج من سورية ومصر (١٩) وصدوا الى الأبد تقدم المغول بقيادة هولاكو وتيمورلنك (٢٠) وقد دامت مدولة

المماليك من سنة ١٢٥٠ الى سنة ١٥١١ للميلاد، فى بلاد كانت لهبة من الفتن والاضطرابات، ولولا هؤلاء المماليك، لغير هولاكو وتيمورلنك وجه التاريخ. وقد تمكن هؤلاء المحاربون - اى المماليك - ان ينقذوا مصر من الويلات التى اصابت سورية العراق. فتمتعت البلاد بثقافة خالية من الفجوات، وسياسة منظمة، لم تنعم بمثلها بلاد اسلامية خارج الجزيرة العربية. وهنا تكمن معجزة المماليك الكبرى. (٢١) واعجب من كل ماذكرنا، ان المماليك استطاعوا - كل مدة حكمهم - ان يحافظوا على مميزاتهم العرقية. وعلى الرغم من انهم كانوا - بوجه عام - قساة ميالين الى سفك الدماء فانهم تأثروا بالفكر العربى وبروح الاسلام فخصوا الفنون عامة والريازه خاصة أجل خدمة. (٢٢)

واعتنوا بالفن عناية لاتقل عن الذى قامت به اية دولة متمدنة، الى ان جاء السلطان (سليم) الذى يلقبه الترك العثمانيون بـ (ياووز سلطان سليم) - اى السلطان (سليم) الشجاع. فقضى على دولتهم سنة ١٥١٧ للميلاد. ونقل الخلافة الى آل عثمان، وقد كانت (القاهرة) من اجمل الديار الاسلامية. (٢٣)

وقد تميز المماليك بأسلوب خاص فى الحكم، فهم لم يتبعوا نظام الوراثة ماعدا (برقوق) الذى عين ابناءه الثلاثة قبيل وفاته.

فكان حكم المماليك غريبا فى كل شيء، ومن ابرز معجزات حكمهم ماقموا به من خدمة للفن الاسلامى، على امتلاء عصرهم بالحروب الرهيبة، والضرائؤب الباهظة، والمجاعات، والفتن، والطاعون، والصراعات الأهلية التى سحقت الشعب بالفاشة، وماكان جوها يوحى بان هناك فنا يمكن ان ينمو ويترعرع، لكن، مع هذا كله، فان الريازة قد ارتفعت فى البلاد التى سيطر عليها المماليك، بطراز ليس له شبيه فى تاريخ مصر منذ ايام الفراعنة والبطالمة، فقد كان مابناه قلاوون والناصر والحسن وكلهم من المماليك البحرية - من مدارس ومساجد، وأضرحة مفخرة للريازة الاسلامية. ولم يكن ما انجز فى عهد المماليك البرجية، بأقل روعة، مما تم فى عهد المماليك البحرية.

إذ لم تر البلاد العربية من الأبنية مابلغ اتقانه حد الروعة، بعد الذى خلفه (برقوق) و (قائتباى) و (الغورى).

لاشك فى ان اصول فن الريازة المملوكى، كانت متأثرة بالاصول السورية والعراقية،

ولاسيما بعد ان اصبحت مصر فى القرن الثالث عشر الميلادى مأوى لذوى الفن، واساطين الصناعة النازحين الى مصر من الديار العراقية والسورية قبل ان يجتاح المغول تلك الديار.

وكان من افضال المماليك على العالم العربى، انهم بهزيمتهم الفرنجة، فتحوا الباب بلا عائق، للحصول على حجارة البناء من مقالعها الشمالية، فخدموا فن الريازة، لان القوم اخذوا يبنون بالحجارة، بدلا من الآجر، الذى كان هو المادة الأساس فى بناء المآذن، قبل ذلك، وهكذا اتيح للبناءين أن يصلوا بالأبنية، الى درجة الكمال. ولاسيما بناء المساجد المدرسية، المصلبة الشكل.

فظهرت القباب الأنيقة، المزخرفة، وبرزت المبانى ذات الخطوط الملونة، التى استعملت فيها حجارة ذات ألوان مختلفة، فى خطوط متساوية، متأثرة بالفن الرومى، والبيزنطى، ومن ذلك (القصر الابلق) (٢٤)

وقد امتاز فن الريازة الاسلامى، فى عصر المماليك، بفن الزخرفة الاسلامية، المشتملة على الحروف الكوفية، والأشكال الهندسية، والصور الجوائية، ولحسن حظ الفن، وعلم الآثار، والتاريخ، ان اجمل واحسن الأبنية، التى خلفها عصر المماليك، مازالت موجودة، نراها عيانا، وفى زيارتها، امتاع للسياح، ولطلاب العلم.

نظام المماليك :

أما نظام المماليك، فقد كان ارقى من نظام الحبشة، على كل ما اتصف به عصر المماليك من قسوة، وخشونة حربية، فان المماليك هم الذين نظموا دولة الحبشة، ودليل ذلك، ان (فخر الدولة) رسول المماليك البرجية – سنة ١٤١٢ هو الذى رتب دولة الحبشة، وانشأ لها ديوانا، ونظم فرق الجباية بقوانين ضبطت سائر احوال بلادهم، ثم جعل لملك الحبشة زيا يمتاز به من الناس، بعد ان كان هذا الملك، يظهر للناس عاديا، عاصبا رأسه بعصابة خضراء. (٢٥) وقد علم المماليك البرجية الأحباش فنون الحرب، واستخدام النفط الحارق فى المعارك. (٢٦)

لهذا، كان ملك الحبشة يحترم المماليك ولاسيما (قلاوون) الذى كان يلقب بالملك

المنصور. الذى هزم جيوش الفرنج والمغول المتحالفة، فى سهول (حمص) وفتح قلعة (المرقب) وساق من فيها من فرسان القديس (يوحنا) مخفورين الى جهات (طرابلس) التى دكت قلعتها فى شهر نيسان سنة ١٢٨٩ للميلاد. وقد ارخ انتصاراته بنقوش ابقاها على جدران القلاع التى استولى عليها. (٢٧)

انحدار دولة المماليك البرجية واسبابه:

رأينا كيف نشأت دولة المماليك، وما حققت فى القدس وضواحيها، وماجددت، وكيف تقيد سلاطينها بالعهود والمواثيق، وكيف تسامحوا مع خصومهم، ومنحوهم حرية العبادة، وكيف احترموا الأماكن المقدسة، والآن نرى كيف تم انحدار هذه الدولة، بحكم التطور الذى يصيب الدول كما يصيب الأفراد. فكما يمر الفرد بمراحل، تمر الدول، بمراحل:

أ) النشــوء .
ب) الشبـــاب .
ج) الاكتهـال .
د) فالشيخوخــة .
هـ) فالهـــرم .
و) فانحـــلال .

وهذا ما اصاب دولة المماليك البرجية، بعد انحلال دولة المماليك البحرية، وقد بدأ انحلال دولة المماليك البرجية، بتسلط الحجاب، اذ صار الحاجب يأخذ الغريم من باب القاضى، ويتحكم فيه، يضربه، ويأخذ ماله، دون أن يلومه أحد. (٢٨) وكانت اعظم اشارة لانحطاط هذه الدولة ماورد فى المرجع نفسه. وقال مرجع آخر ماحرفه: «وصارت دولة المماليك، من ارذل الناس، وأدناهم وأخسهم قدرا، وأشحهم نفسا، وأجهلهم بأمر الدنيا، وأكثرهم اعراضا عن الدين، ومافيهم إلا من هو أزنى من قرد، والص من فأر، وافسد من ذئب، لا جرم ان خربت ارض مصر والشام من حيث يصب النيل الى مجرى الفرات بسوء ايالة الحكام، وشدة عيب الولاة، وسوء تصرف أولى الأمر، حتى انه ما من شهر الا ويظهر الخلل، العام، مالا يتدارك فرطه».

«حتى (برقوق) الذى يعتبر مؤسسا لدولة المماليك البرجية، المتميز بعقله وذكائه،

وألمعيته انصرف فى اخر ايامه الى جمع المال، من غير ان يهتم بالرعية، فانتشرت الرشوة، ولم يتمكن من مقاومتها، ومع كل دهائه، فانه كان يعتمد على سفلة الناس وحط ذوى البيوتات». (٢٩)

وانتشرت الفوضى فى زمن برقوق نفسه بعد أن هزم جيشه فى معركة دمشق المعروفة بمعركة (الخمسمئة) فى سنة ٧٩١هـ (١٣٨٩م)، ودبت الفوضى فى القاهرة حتى قيل :«إن الناس لم يستطيعوا ان يدفنوا موتاهم». (٣٠)

فلا عجب أن يكون ماذكر سببا لانحدار هذه الدولة أدى فيما بعد الى زوالها، وقد أكمل المماليك البرجية مابدأ به المماليك البحرية من سفك الدماء، فكان عهدهم من أشد العهود اظلاما، وأعجب مافى الأمر أنه، على كل هذه التناقضات التي كانت في سلوكهم، فانهم قد حافظوا على العهود والمواثيق، وجددوا شباب الاسلام، بخدمتهم للفن، والريازة، وبناء المساجد والمدارس والأضرحة، وأعود فأقول إن معجزتهم الكبرى هى تقيدهم بالمواثيق والعهود التى منحوها الرهبان، وهم بقايا أعدائهم، فكان ذلك شهادة على أن أثر الاسلام فيهم كان عظيما.

المراجـــع

١- التوراة، طبعة اليسوعين، بيروت، ١٩٣٧م .

٢- موسوعة القبابات المقدسة، جعفر الخليل، دار الفارق، بغداد، ١٣٩١هـ/١٩٧١م .

٣- القرآن الكريـــم .

٤- صحيح البخارى، ابو عبد الله البخارى، مصر، ١٣٠٤ .

٥- الأنجيل، طبعة اليسوعين، بيروت، ١٩٣٧م .

٦- مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة، الدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادى، القاهرة، ١٩٤١م.

٧- تاريخ الأمم والملوك لـ الطبرى، مطبعة الاستقامة، القاهرة.

٨- الكامل لابن الأثير، مصر ، وطبعة دار صادر، بيروت ١٣٠٢هـ.

٩- الوثيقة المحفوظة فى دير الروم الأرثوذكس التى يدعى انها كتاب الأمان العمرى، ١٥هـ.

١٠- مجموعة التوصيات والمواثيق، القدس .

١١- تاريخ العرب المطول، الدكتور فيليب حتى ورفقاؤه، دار الكشاف، ١٩٦١م.

١٢- العرب واليهود فى التاريخ، الدكتور احمد سوسه، دمشق، ١٩٧٥م.

١٣- حسن المحاضرة، السيوطى، القاهرة، ١٢٩٩هـ.

١٤- النجوم الزاهرة، ابن تغرى بردى، ليدن، ١٨٥١م .

١٥- حسن المناقب السرية، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

١٦- الملك الطاهر بيبرس، عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

١٧- العبر والمبتدأ والخبر، ابن خلدون، بولاق، ١٢٨٤هـ .

١٨- المواعظ والاعتبار، المقريزى، القاهرة.

١٩- W.F. Al Brighat (Arehaelogy And the Religion of Israel, 1942, P 68.

وغيرها من المعاجم والقواميس.

(١) اليبوسيون، عرب، وهم ملوك (القدس) وكانت (القدس) المسماة (يبوس) عنوان حضارة، كانت تتجلى فى عمارتها، وابنيتها الفخمة، واسباب معيشتها ورفاهية سكانها، وكان من ملوك (يبوس) القدماء (سالم اليبوسى). موسوعة القبات المقدسة، الجزء الاول طبع دار التعارف - جعفر الخليلى.

(٢) راجع (سفر القضاة) الفصل التاسع عشر، من العدد الـ ١١-١٣، قال اللاوي لقلامه الذى دعاه الى المبيت فى يبوس مدينة اليبوسيين : «لا نميل الى مدينة غريبة، ليس فيها احد من بني اسرائيل، لكن نتخطى الى جبع، التوراة سفر القضاه ، الفصل التاسع عشر من العدد الـ ١١ الى العدد الـ ١٣.

(٣) يرى الاستاذ (والبرايت) الذي يعد في مقدمة من يحتج بهم فى تاريخ (فلسطين) ان تاريخ الكنعانيين - اليبوسيين - فى (فلسطين) يرجع الى أوائل الالف الثالث قبل الميلاد، W.F. ALBRIGHRT «ARCHAEOL.GY AND RELIGION OF ISPAE» 1942, P. 68 العرب واليهود فى التاريخ جـ ٢ ص ٦٢٥ الدكتور احمد سوسه الطبعة الرابعة، منشورات العربي للاعلان والنشر والطباعة والترجمة دمشق، ص.ب ٢٥٢١.

★ (من الكاتِب) سورة آل عمران الآية ١١٠.

(٤) انجيل متى الفصل الحادي والعشرون العدد الـ ١٢ ومابعده.

(٥) ابن خلدون جـ ٥ الصفحة الـ ٤٧٢ وابن تفري بردي جـ ٦ قسم ٢.

(٦) حسن المحاضرة جـ ٢ الصفحة الـ ١٨.

(٧) تاريخ العرب المطول الصفحة الـ ٨٢٥ .

(٨) مجموعة العهود والمواثيق من الصفحة الـ ١٨ - ٢٤ .

(٩) برقوق كان فى اول امره رفيقا لابناء (الاشرف شعبان). جدول المماليك فى الصفحة الـ ٧٩٦ من تاريخ العرب المطول للدكتور فيليب حتى والدكتور ادورد جرجى، والدكتور جبرائيل جبور الطبعة الثالثة سنة ١٩٦١، وقد شاد (برقوق) مساجد، وضرائح، وبلغ فن الريازة فى زمنه اسمى درجة. ومن مفاخر عصر برقوق، ان ابن خلدون كان قاضيا، واستاذا فى عهده.

(١٠) نلاحظ ان هذا المرسوم يشير الى ان المماليك لم يخصوا بحمايتهم الرهبان وحدهم فشملت حمايتهم الرهبان وغيرهم من تعديات رجال السلطة، غيرهم. وقد وقع اختيارنا على ثلاثة مراسيم لـ (برقوق) كل واحد منها بمعنى (العزيزي).

(١١) كان (جقمق) مملوكا لـ (برقوق) ثم ترقى، حتى جلس على عرش السلطنة، وكان يختلف عن (برقوق) بانه شدد على اهل الذمة. شغف بجمع الكتب الجميلة، (العزيزي).

(١٢) كلمة اعجمية معناها الحراس .

(١٣) وهذا دليل قاطع ينفى مايتهم به العرب والمسلمون بانهم لايرعون عهدا وانهم متعصبون، لايعرفون لبقية الاديان السماوية كرامتها.

★ لم نرد ان ننبه على الاوهام اللغوية، لانها معروفة.

(١٤) هذا المرسوم من اطول المراسيم والمواثيق وكتب التوجيه، وفيه اشارة الى التوصيات والعهود والمواثيق السابقة التى صدرت قبله، وتوصية بلزوم احترامها، ويتضح من هذا الميثاق ان الحماية ليست قاصرة على الرهبان، بل هي شاملة للتجار وللذين يجيئون لزيارة القيامة ولغلمانهم، وفيه رد عملي حاسم على كل متهم للعرب والمسلمين بالتعصب، يؤكد على ان المماليك حافظوا على روح الامان الذي منحه الفاروق لاهل القدس واحترام للمواثيق السابقة ، راجع الصفحة الـ ٢٩٢ من مجموعة العهود والمواثيق.

(١٥) اهل البندقية وهي (VENISE, VENEZIA) مرفأ فى ايطالية شمالي الادرياتيك، فى قسم من المدينة على جوانب الترع، ويتنقل الناس في هذه الترع بالزوارق. كان للبنادقة فيما مضى علاقات تجارية وثيقة مع اهل المشرق (العزيزي).

(١٦) رهبان الحبل، ورهبان الحبلة – هم رهبان القديس فرنسيس، ويعرفون اليوم بـ (الفرنسيسكان) وقد سموا برهبان الحبل لانهم يلفون حزاما من الحبل على اوساطهم (العزيزي).

(١٧) هذا هو الاسم الذى كان يطلق على المكان الذي اقيمت فيه كنيسة القيامة، لان ذاك المكان كانت تطرح فيه القمامات قديما.

(١٨) البلاصية جمع بلاص عامية معناها الذي يبتز اموال الناس يلاحق وفى محيط المحيط بلصه أخذ ماله ولم يدع عنده شيئا، راجع قاموس العادات واللهجات والاوابد الأردنية للعزيزي .

(١٩) تاريخ العرب المطول، الصفحة الـ ٧٩٣ .

(٢٠) المرجع نفسه والصفحة عينها .

(٢١) المرجع نفسه والصفحة عينها .

(٢٢) الريازة هي فن البناء .

(٢٣) تاريخ العرب المطول ، الصفحة الـ ٧٩٣ .

(٢٤) تاريخ العرب المطول الصفحة الـ ٨١٦ .

(٢٥) قيام دولة المماليك الثانية، فيما نقله عن المقريزي الصفحة الـ ١٦٢ .

(٢٦) الالمام باخبار من ارض الحبشه، الصفحة الـ ٤ وعنه نقل مؤلف دولة المماليك الثانية الصفحة الـ ١٦٢.

(٢٧) تاريخ العرب المطول، الصفحة الـ ٧٧٨ .

(٢٨) عن المقريزي فى المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٩١/ ٢٢٠ وعنه نقل مؤلف قيام دولة المماليك الثانية ، ص ١١٩ .

(٢٩) النجوم الزاهرة، فى اخبار مصر والقاهرة لابن تغري بردي وهذا الكتاب مرتب على السنين. من الفتح العمري الى زمان مؤلفه سنة ١٤٥٣ وقد طبع فى (ليدن) سنة ١٨٥٥، وعنه نقل مؤلف قيام دولة المماليك الثانية فى الصفحة الـ ٧٧ اما في النجوم الزاهرة، ففي الجزء الـ ١١ الصفحة الـ ٢٩١.

(٣٠) نزهة النفوس والابدان، الورقة الـ ٣١أ .